زنبقة الغور

رواية اجتماعية متتابعة

بقلم

ملخص ما نشر سابقا

مريم ابنة الراعية سارة من الراهب ايلياس البلان هربت من دير الايتام في الناصرة لما قاسته من الاضطهاد ولجأت الى القس جبرائيل مبارك فوضعها تحت رعايته وهو صديق قديم لامها وادخلها بيت اخيه جرجي مبارك للخدمة . وهنالك هام بها عارف مبارك ابن صاحب المنزل فخطاها ووعدها بالزيجة . وقدم المنزل ابن عمه ايوب مبارك ضيفا فاعجب بحسن مريم فقصد غرفتها ليلا ليطارحها الغرام ففاجأه عارف وقتله غيرة وهرب . فاتهمت مريم بالجريمة واعترفت وهي في السجن بما جرى للقس جبرائيل فانقذها بنفوذه وصار بها تاركا ديره الى حابرية ليستر عارها . وهنالك اقام وابلها في بيت منفرد عند الحمامات المعدنية على مقربة من المدينة وبثا تلد وأقام لها خادمة اسمها هيلانة كانت غاوية فهداها واحسن اليها ولكنها لم تصدقه التوبة . فلما ولدت مريم سرقت هيلانة طفلها ليلا بايعاز امها الشقية واخفته عندها . واشاعت ان القس جبرائيل رمى الطفل في البحيرة . وبلغ الخبر مريم فتقدمت عليه ولكنه اوضح لها ما يعرفه من حقيقة الامر . الا انها كرهت المعيشة معه فغافلته وهربت الى فرنسا مع سائحة افرنسية استأجرتها لتعلم ابنها العربية . ورآها في الباخرة نجيب مراد فمال اليها وزارها بعد ذلك في منزل سيدتها بباريز

. . . ورافقها مراراً يطوف بها باريس ويريها ملاهيها وبذيقها من ثمار حريتها الحلو والمر والظاهر والمكنون ووعدها بالسعي في سبيلها خيراً لتحسين مركزها . ثم علق بها ابن سيدتها الشاب فتبرمت منه وخشيت سيدتها سوء العاقبة فابتاعت لها جواز سفر الى وطنها ، ولكن

مريم احبت البقاء في باريس فعادت من محطة القطار تفتش عن صديقها نجيب مراد في النزل فوجدت انه قد سافر ولم يترك لها خبراً . فراحت تسعى لتجد لها وظيفة في احد المسارح

تابع ما قبله

جاء المدير يقول — الى العمل يا بنات . وطفق يجول في المسرح ويلوح بيديه . آمراً ناهياً ، ناصحاً معلماً ، ناقماً صاخباً

— انت يا جولي خطوتك صغيرة . وانت برشاقة . برشاقة . الى الامام . يديكنّ كالاجنحة ترفرف . رأسكنّ الى الشمال . نظركنّ الى اليمين . امشي مشياً يا « فلسطين » ولا ترقصي سابرستي ! امشي مشياً . مثل رفيقاتك . لاحظي من الى يمينك ووافقي بحركات يدك حركات يدها . رأسك الى الشمال . نظرك الى اليمين . لا تحركي صدرك . براڤو « فلسطين » براڤو . خطوة . خطوتان . ثلاثة . الى اليمين جولي . الى الشمال لويز . قفي . قفن كلكنّ . سابرستي ! ليكن الصف مستقيماً . حسن . حسن . راجعنّ ذلك .

فعادت البنات ست منهنّ الى جهة الشمال خارج المسرح وست الى جهة اليمين . ثم دخلنّ صفين على خط مستقيم فالتقت جولي بلويز ثم تقدمنّ صفين ثم افترقنّ . والمدير يعيد الامثولة — خطوة خفيفة رشيقة . لا قصيرة ولا طويلة . حركي يديكِ يا « فلسطين » . ثبتي صدرك . رأسك الى الشمال . نظرك الى اليمين . صفاً صفاً . الى الامام قليلاً . انتِ . انتِ . الى الوراء .

وهذا هو الدور كله . تقف هؤلاء البنات في وسط المسرح وراء المغنية الشهيرة بينا تغني دورها وهن يطيبن بروسهن وبابديهن . ثم يجتمعن حولها ويدرن راقصات بل لاعبات كالبنات في الحقول في فصل الربيع . ثم يدخل اثنا عشر شاباً فيرقصون حولهن وكل شاب يذارع فتاة ويرجع بها الى مؤخر المسرح بينا المغني والمغنية يغنيان معاً دورهما المشهور

ساعة من هذا التمرين . فعادت ريم الى بيتها تقول — ثلاث خطوات على المسرح . وثلاث دورات حول المغنية . وساعة وقوف كالتمثال — أهذا ما سعيت من اجله ؟ ورمت بنفسها على السرير اسيرة الهم بين طريدة الفشل . ولكنها لم تيأس . فعولت ان تجرب بادئة عليها تتدرج سريعاً .

وفي اليوم الرابع اوعز المدير اليهن ان يلبسن ثياب الرقص للتمرين الاخير . فدخلت البنات كل خمس منهن الى غرفة صغيرة جدرانها مبطنة بصور الراقصات والممثلين مقصوصة من الجرائد والمجلات . وفيها بضع مرايا مكسرة . امام كل واحدة منها رفوف عليه اصناف شتى من المساحيق والمعاجين والادهان

— لماذا لا تخلعين ثيابك يا « فلسطين » ؟

— « فلسطين » حبيبتي . أتقربك « صالومي » — ألا تعرفينها تلك التي قطعت رأس يوحنا المعمدان . ورأسك ! انت اجمل منها .

— وما ابدع شعرها . وما اطوله . وما اجمل لونه تراالاً ! وحاولت الراقصة ان تحله فنفرت مريم منها .

..

— اخلعي ثيابك لنتفرج عَلَى معاطفك وارتدي هذه السرابيل الحريرية. ولا تستحي .

— لله من عينيك . يا «فلسطين» . فيهن سحر المجدلية . دعيني اقبلهما

فتفلتت مريم منها حردة ناقمة . فتقدمت اليها راقصة اخرى تقول — اكشفي عن ساقك يا « فلسطين » لنتفرج عليه . وجنبك . ترالاً لاً !

— انيك عنها — لا تمسيها . هي مطهرة . هي من الهيكل هيكل عشتروت

— الله ! ورائحة شعرها كروائح الند والمسك والبخور

— حلي شعرك . حليه .

— مريم المجدلية . ترالاً لاً ! تعالي معي الليلة اجمعك بشاعر شعره مسترسل . ولحيته شقراء . وعيناه زرقاوان . شاعر يشبه المسيح . تعالي معي ايتها المجدلية اجمعك بسيدك .

وكانت مريم اثناء ذلك تخلع ثيابها والحنق من ذا التعذيب والتنكيد يملك نفسها . فتورمت اوداجها واحتدم الغيظ في ناظريها .

— لله ما ادق مفصلها الكعبي . ابن خلخالك يا « فلسطين »

— ولكن ساقها لا يناسبه . ساقها غليظ

ومرّت الفتاة يدها عليه فرفستها مريم وهي تلعن بالعربية اباها . فوقعت مستلقية عَلَى ظهرها فضجت الغرفة بالضحك والصياح . فقالت احداهن

— بحق « لصالومي » ان تقطع رأسك

وقالت الاخرى — بحق « لفلسطين » ان تصلبك.

وقالت الثالثة — يحق للمجدلية ان تشرب دمك .

— ساصلب عظامها ! ساقور عينيها ! نجاسة فلسطين ! ساكرنن دي بالاستين ! ! سادق عنقها . سافقأ عينيها ! وهجمت تلك الفتاة تسل دبوس قبعتها . فوقفت جولي تصدها وتحمي مريم .

— دعيني اقور عينيها . فقد أبت اللعينة ان اقبلهما .

— دي دبوسك الى قبعتك . ليس الوقت وقت براز .

— يا للعار ! يا للعار ! ان هي الا غريبة وانكن غليظات قاسيات . لا تحردي يا مريم ولا تغضبي . دعيها تقبل عينيك فهي تحبك . وتعجبم بجمالك . تعالي . قبليها . سا سا ! لتحي « فلسطين » ! فهتفت البنات بصوت واحد . لتحي « فلسطين » !

ثم خاطبتها جولي مناعمة ملاطفة فقالت — دعيني اساعدك اين سرابيلك الحريرية ؟ (مرسي)

وأرتها سرابيل محكمة يلبسها اللاعبون على الحبال ، والراقصات

— أليس لديك واحد مثل هذا . اعيرك اليوم مما عندي . وبعد التمرين اذهب واياك الى حانوت تشترين سرابيل . لانها للراقصة يا صديقتي ألزم من المجلة للفقيه ، والعربة للطبيب ، والخادمة للكاهن . السرابيل ألزم للراقصة من خبزها . بل هي خبزها . هي سرها . وهي سلاحها . واذا ارتدت قميصها بدونها تهلك في السجن جوعاً . السرابيل شغاف الفن . شغاف الحب ، شغاف العفاف . فاذا اختال الفن عارياً دونها تحترق ال « تياتر » وتحترق باريس .

وينتهي العالم ·

— احسنتِ يا جولي احسنتِ · لستِ والله في مركزك هنا ينبغي ان تكوني في مجلس النواب ·

— أحسنتِ · عهدناها لبيبة · فاذا هي خطيبة ·

— بل عهدناها زمّاره · فاذا هي ثرثارة ·

— ألبسي يا مريم ومالنا وهذرهن ·

فلبست مريم ذاك اللباس المحكم · وانتعلت نعلاً رومانياً · وارتدت قميصاً من الحرير مهلهلاً · ثم وضعت جولي عَلَى رأسها اكليلاً من الزهر المصطنع فنزعته مريم وضربت به عرض الحائط

— ما بالك ؟ أتأبين الاكليل ؟

— اكليل الهذر والهذيان · اكليل الكذب اكليل السخافه ! حرقت الازاهر الاصطناعية في بلادي أفتلحقني الى باريس ؟

— ولكن لا بد منه يا عزيزتي · اذا لبسنا الثياب اليونانية ولم نلبس الاكليل تدينا الـ « اكاديمي » وتجازينا عَلَى فعلتنا الـ « كوميدي » ويشنقنا مدير الـ « اپرا » · واذا نجونا من الشنق · يضحك منا البوليس · وهذا شر العقوبة · ألبسي الاكليل · ألبسيه فها الجرس يقرع · والمدير ينتظر ·

بدت مريم في سرابيلها اليونانية كأنها ابنة آثينا او عروس من روايات الشاعر بيرون · فسرّ المدير بها وباتقانها دورها · ولكن الفتاة الناصرية لم تسر لا بالمدير ولا بالدور ولا بالراقصات رفيقاتها — لم ترضَ ان تكون

هذه بداءة امرها في الرقص . لم ترض ان تكون من التماثيل المعروضة على الناس صفاً . لم ترض ان تكون سفراً الى الشمال او كمالة عدد الاقبال . ولم ترض فوق ذلك ان تأخذ رفيقاتها من قلبها ونفسها هدفاً لسخرهن وهذرهن . على انها حباً بالفن قبلت العذاب وقدمت نفسها ضحية على مذبحه شهراً كاملاً . فاضطر المدير بعدئذٍ ان يغير الرواية لانها لم تصادف اقبالاً فصرف بعض البنات وكانت مريم منهن . انقدها اجرتها بعد ان حسم منها عشرة بالمائة للوكالة اي لتلك السيدة صاحبة الوجه الشاحب القطوب التي عادت مريم اليها تسألها السعي مرة اخرى في سبيلها . فدوّن الكاتب اسمها في سجله ثانية ثم انقدته الرسم وراحت تنتظر .

ولى الاسبوع يتلوه الاسبوع ثم الشهر ثم أخوه ومريم تنتظر مبارة واجلة وهي تنظر الى كيسها من حين الى حين كما ينظر المحكوم عليه بالاعدام الى الساعة في يومه الاخير . دنى الاجل . نفد المال . فجاءت مريم تلح على السيدة فقالت هذه في نفسها متبرمة متأففة — ألا تكفينا بنات فرنسا بل بنات اوربا . يظنن ان مسارح باريس جنة عدن فيتهافتن عليها كالذباب على الحلوى . ثم قالت تخاطب مريم — يا بنتي . ان الطالبات عملاً في الـ « تياترات » الوف مثلك والمبتدئة تضحك في عبها اذا فازت بشبر على المسرح تقف فيه عارضة وجهها وساقيها لان ذلك خير لها من ان تعرض نفسها وجسمها في الشوارع .

وتيقني مدموازل انني باذلة جهدي في سبيلك . ولكني لا اعدك خيراً

في المستقبل القريب . معظم الـ « تياترات » اليوم مقفولة والاشغال واقفة . وسابذل مع ذلك جهدي . لم لا تطلبي عملاً في احد بيوت « المودة » عند احدى الخياطات . قدك دقيق جميل واية خياطة من الخياطات الشهيرات تستخدمك تمثالاً (مُدل) عندها .

فلما سمعت مريم ذا الكلام وبالاخص الاشارة الى التمثال نهضت على الفور فودعت تلك السيدة التي تتكلم دون ان تحرك شفتيها وعادت الى غرفتها وقد ساورها من الهم ما لا يحيا الى جانبه امل ولا تثبت امامه عزيمة . اقفلت الباب باب تلك الغرفة الحقيرة فاذا هي فيها وحيدة مخذولة يائسة . نظرت من الشباك الى مداخن باريس امامها فاحست انها واحدة منها — مدخنة بين الوف المداخن . ليس في صدرها غير نار تتأجج فيتصاعد منها دخان الغش والغم . ثم جلست على سريرها تسند رأسها بيدها وجعلت تفكر في مصيرها . ثم نهضت على الفور فاخذت سلسلة الذهب التي اهداها اياها نجيب مراد فنزعت منها الايقونة الحندقوقية المرصعة بالماس ووضعت مكانها الذخيرة التي اهداها اياها القس جبرائيل وطفقت تقبلها وتبكي

— آه ما اكرمك خلقاً يا قس جبرائيل . وما اعزك نفساً . وما اشرفك قلباً

وفي اليوم الثاني ذهبت بالايقونة الى احد الصاغة فباعتها بثلاثين ذهباً . ثم صوّبت خطواتها الى شركة البواخر الافرنسية وهي تقول — كسرتيني اليوم يا باريس فلا بدّ من ان اكسرك غداً .

—(الفصل الثالث عشر)—

كان ابرهيم يخدش الارض بمعوله حيث لا يصل الى تربتها المحراث وهو يخدش آذان الفجر والاطيار بادوار من المواليا

وكان الراهب الفلاح قد باشر الفلاحة ، وثوبه الاسود ، وقد شمره من الامام يبدو كذنب الغراب من الوراء وتبدو تحته سراويل زرقاء وجوارب بيضاء يقيها من الارض حذاء ثقيل النعل مرأس الاطراف ، وقلنسوته منسترخية بين كتفيه وليس عَلَى رأسه غير عوقية سوداء صغيرة .

— جز الحشيش يا ابرهيم . جز الحشيش . وأرح صوتك . صباح مبارك يا ابني . اعطِ المواليا فرصة ساعة . نفرت الاطيار . نكدت البقر . تعال الى هنا . اترك الزوايا تنقبها بعدئذٍ . تعال جز الحشيش .

— بكرت اليوم يا معلمي

— لتنفر الاطيار وتكدر صفا الاسحار . اوقف لسانك . وحرك يديك . ها قد تعالت الشمس ذراعين فوق الجبل ولم نحرث بعد ثلمين

— لا خوف علينا يا معلمي . الجو صافٍ والنهار طويل . ولم يبقَ قدامنا للحراثة غير القليل .

وجاء ابرهيم يمشي الهوينا مشية البقر ويهول بمنجله ويصيح — ياظريف الطول يا سن الضحوك !

— اذا كنت لا تشفق عَلَى صوتك يا ابرهيم فاشفق عَلَى البقر . فان للبقر

آذاناً · تعال جز الحشيش واسكت · بحياة ابيك برحمة اجدادك ان تسكت · اسكت واشتغل ·

وكبس الراهب عَلَى السكة برجله والمساس في يده كالرمح في يد فارس من فوارس الجاهلية وخطوته وقد هرولت البقر مذعورة نكاد تكون طول المساس ·

— آهو ! آهو ! ! الله معك « كحلا » الله معك · يمينك « كحلا » يمينك · آهو ! عنها « أبلق » عنها · — هذا الفدان لا ينفع يا ابرهيم · فقد خُدع ابوك هذه المرة · « الابلق » لا يستأهل علفه ·

— « الابلق » يا معلمي زينة البقر · احسن فدان في البلاد · صيته ملأ المرج وبيسان · ولما اشتريناه واستلمت انا رسنه جعلت ابنة صاحبه تبكي وتقول — خلوا لي « الابلق » او خذوني معه · والله يا معلمي جرحت قلبي وسلبت عقلي ·

— لا تقدر ان تسلبك ما لا تملك يا ابرهيم

— والله يا معلمي وجهها مثل القمر وشعرها مثل الليل وجبينها مثل نجمة الصبح —

وشرق ابرهيم بريقه وهزّ رأسه وشخص الى السماء بعينيه · ثم قال وهو يقطع بمنجله قضيباً من البردى — حظي مثل شعرها يا معلمي · لو رضي ابي لسلمته رسن « الابلق » وسلمتها رسني

— كنا بالابلق صرنا بنجمة الصبح · لا حول ولا ! لسانك يا ابرهيم

يلزمه رسن · جز الحشيش يا ابني · ينبغي ان نطعم البقر — آمو ! عنها !! عنها « ابلق » · لعين هذا «الابلق » لا اظنني استطيع ان افلح يومين عليه · هات الكمامة يا ابرهيم · كمه · كمه · أتخافه ؟ يا لضيعة الطول · يا لضيعة العرض · خذه بقرنه ولا تخف · امسكه بقرنه · يا لك من جبان · اليك عنه · رُح غني للقمر وسلم رسنك لنجمة الصبح · طر شـاربك ولا تحسن ان تكم الفدان ·

واخذ الراهب الكمامة منه ومر كفه عَلَى رقبة الفدان يمسحها ويطايبه ثم كمه كما لو كان نعجة حولية · ومسح الزبد الذي تساقط عَلَى يده من شدقيه وعمد الى المحراث والمساس يستأنف الحراثة

وبعد برهة عاد ابرهيم وبيده المنجل وباقة من الحشيش يقول

— نسيت اخبرك يا معلمي اننا في رجوعنا من بيسان حيث اشترينا « الابلق » مررنا بالحمامات فلمحت هنالك الفتاة التي بعثتها مرة الى بيتنا برسالة الى ابي كانت جالسة في القهوة تشارب رجلاً وتمازحه · فلما رأتني همست في اذنه كلمة ثم سألتني عنك ·

فاوقف الراهب المحراث لساعته ·

— وماذا قلت لها ؟

— قلت لها ان معلمي في البيت بالغوير

فاكفهر وجه الراهب

— خزاك الله ! ومن كلفك بذلك ؟ ألم اقل لك ولابيك ولامك انني

اروم العزلة هنا ألم افرض السكوت عليكم اذا سُئلتم عني ؟

— وهل اكذب عليها ؟ والرجل الذي كان يشاربها لحقني الى الخارج وهمس في اذني قائلاً — قل لمعلمك اذا جاء الى قهوة الحمام اية ليلة كانت هذا الاسبوع يشاهد صديقاً فيها ويسمع ما يسره

— وغير ذلك يا ابرهيم

— لا شيء يا معلمي .

— رُح الى شغلك . رُح الى شغلك . وألجم لسانك .

واستأنف الراهب الحراثة وقد علا وجهه غيمة اضطراب يتخللها بريق الهواجس المحرقة .

وساعة الظهر جاء ابوابرهيم يحمل الى سيده الغذاء . فحلّ عن الابلق والكحلاء النير وربطهما امام عرمة من الحشيش الاخضر

ثم فرش عباءة في ظل شجرة عند ضفة الغدير جعلها خواناً وصفّ عليها الخبز والجبن والزيتون والبصل ويضع سمكات مشوية . فجلس الراهب بعد ان صلى صلاة الظهر وجلس حوله ابوابرهيم وابنه يتناولون الغذاء . وكان سكوت ابرهيم اثناء الاكل مدهشاً ومستحباً . فجعل يقلب نظره في ما على العباءة فيتناول اللقمة تلو اللقمة والرغيف تلو الرغيف وهو يقرض ويزدرد ويرتشف ولا يميل ببصره يميناً او شمالاً .

— بارك الله فيك يا ابرهيم . بارك الله فيك ؟ أو لم تعطش يا ابني — فهزّ ابرهيم رأسه واللقمة تملأ فمه . فقال ابوه — قم املأ الابريق . لو

كان يحسن الشغل كما يحسن الاكل —

— والثرثرة يا ابا ابرهيم · اصلحه الله

عاد ابرهيم بالابريق وقد ملأه من الغدير · فاوعز اليه ابوه ان يباشر نقب الزوايا · وقال — ووالله اذا لقيتك نائماً اذبحك بهذا المنجل ثم قام الاب فساق « الكحلاء » و « الابلق » الى الغدير ثم عاد بهما فكدنهما واستأنف الحراثة · فقال الراهب — سترى بعد الامتحان يا ابا ابرهيم انك خُدعت بالابلق · واستلقى في ظل الشجرة ينام القيلولة · ولما استفاق عمد الى معول يساعد ابرهيم في نقب الزوايا · ثم جآء الى ضفة الغدير يصلي صلاة العصر وفتح كتابه الذي يحمله ابداً في جيبه كتاب الاقتداء بالمسيح يطالع فيه · وما هي الا برهة حتى جاءت ام ابرهيم تقول — امرأة يا معلمي تطلبك في البيت ·

— ومن هي ؟ وماذا قلت لها ؟

— قلت لها انك متغيب · فكذبتني بدون حيآء قائلة — معلمي القس جبرائيل هنا · احلف بالله انه هنا · واحب ان اقابله

فقلت لها انه في رياضة لا يقابل احداً من الناس · فقالت مصرة — وقولي له لطيفة العشية التي كانت تطبخ في بيت اخيه بالناصرة تحب مقابلته

— فقال القس جبرائيل يخاطب نفسه — لطيفه · لطيفه · وما غرضها ؟ ومن اخبرها يا ترى انني مقيم هنا ؟ لا بأس يا ام ابرهيم · قولي لها — ان بالحري دليها الى هذا المكان ·

وما هي الا برهة حتى عادت ام ابرهيم تستصحب لطيفة · ولما رأت هذه النفس جبرائيل هرولت اليه تقبل اذياله ويديه وتبكي

— حسبك يا لطيفه · اجلسي عَلَى هذه الصخرة · وامسحي دموعك · ما خبرك يا بنتي ·

— قصتي طويلة يا معلمي ومحزنة ·

— اوجزي ولا تبكي ·

— بعد خروج مريم من السجن طردتني معلمتي الست هند لانني لم اشهد في المحكمة كما ارادت · لم اقل ان مريم قاتلة المرحوم ايوب · فضربتني وطردتني ولم تدفع من اجرتي الا قسماً يسيراً · فاصبحت طريدة شريدة وظللت في الناصرة شهرين افتش عن عمل · فلم افز بشيء · ثم سافرت الى حيفا فتجشمت هنالك بضعة اشهر اخدم في احد الخانات ثم عدت الى الناصرة خائبة الامل فسمعت فيها من اناس انك مقيم في بيتك بالغوير · فجئتك مستجيرة مسترحمة علك تدخلني في احد البيوت بطبريا خادمة او طابخة · هذه قصتي بالايجاز ·

— طيبي نفساً · وقري عيناً · واي متى تركتِ الناصرة ؟

— ظهر البارح ·

— وكيف حال اخي يوسف ؟

— لم اره يا معلمي ولكني سمعت ان عارفاً اليوم في حيفا يتعاطى التجارة

— هل سمعتِ الخبر هذا وانتِ في حيفا ؟

— نعم .

— وهلاّ رأيتِ عارفاً ؟

— لا يا معلمي . واين مريم اليوم ؟

— لا تسألي عما لا يعنيك .

فاشارت لطيفة بنظرها وقد حرّكت به بين القسيس وام ابرهيم انها تروم مسارورته . ففهم القس جبرائيل وقال مخاطباً اجيرته — شمي الهواء بضع دقائق يا ام ابرهيم . ما الخبر يا لطيفة ؟ عساه ان يكون خيراً .

— عرفتُ يا معلمي بما حلّ بمريم بعد خروجها من السجن — بولادتها ، بسرقة طفلها ، بسفرها مع السيدة الافرنسية الى فرنسا . وليس ذلك بعجيب لان خبرها انتشر في الناصرة وفي حيفا . ولكن الغريب العجيب ما اطلعت عليه ليلة البارح . فاذا كنت مصيبة في ظني فمجيئي اليك ألهام من الله

— وماذا رأيتِ ؟

وقفت مساء البارح وانا قادمة من الناصرة امام بيت خارج طبريا وقد انهكني المشي . فقلت في نفسي — أن اسأل المبيت هنا خير لي من الدخول ليلاً الى البلد وانا غريبة . فوقفت في الباب واذا بامرأة ترضع طفلاً وتضربه وتقول — ارضع ترضع السم ، ارضع ترضع الطاعون . فخفت ورجعت ادرا بي . قائلة في نفسي — انامرأة هي اشبه بالجن منها بالبشر لا تأويني . ثم فطنت لشيء من المال معي فعدت اسألها حاجتي واعرض عليها الغرشين بكل ما كنت املك . فابرقت عيناها لذكر المال واختطفت الغرشين من

يدي قائلة وهي تشير الى الزاوية — نامي هناك · فرميت بنفسي الى الارض وقد كدني التعب ونمت من ساعتي · ثم استيقظت في الليل فسمعت الامرأة تكلم فتاة عندها وتسبها · فتناومت استرق حديثهما · فسمعت الامرأة تقول — تكاد تتم السنة ولم يسأل احد عنه الله يلعن اباه وامه · لو كانت امه امرأة لفتشت عنه ولكنها جنية غولة · لعنها الله · فقالت الفتاة — بعثنا الى الرجل خبراً وهو الان مقيم في بيته بالغوير · وقد اتخذ احمد الامر عَلَى عاتقه · ليطمئن بالك · فصاحت الامرأة — ليطمئن بالي ؟ كلفنا ابن الخنا حتى الان خمسة ذهبات · واهلكني · لم اعد استطيع ان ارضعه · نفد حليبي وصار واجباً ان نشتري له حليباً · اكاد اموت والله · اذا كان لا يجد شيء في امره قريباً ارميه في البحيرة واستريح منه · الله يلعن الاولاد · الله يلعن البشر !

فقالت الفتاة — صبرنا عشرة اشهر لنصبر عشرة ايام · وقد قال احمد انه لا يسلم الطفل قبل ان يقبض الخمسين ذهباً ·

فقالت الامرأة — وانتِ صاحبة احمد تأكلينه وتشاربينه · فسيشتبه الرجل بكِ ويشكوكِ ويشكوني الى الحكومة فتهلكين وتهلكيني معك · عليك اذاً ان تختفي حالاً · سافري الى صفد غداً · وابقي هناك اسبوعين · وانا اقابل احمد فنطبخ الطبخة ونترك الطفل حيث لا يُعرف مقرّه احد غيرنا · انهضي واسرعي سافري الان · وغداً اقابل احمد ·

امره وخطر لي ان ألفت نظر الحكومة اليه — لينجو ذاك الطفل السيء الطالع ·

هذا بعض ما سمعته من الحديث الذي دار بين الامرأة والفتاة · فهالني

حنّ قلبي اليه والله . واخشى ان ترميه في البحيرة اذا كان ابواه لا يفتشان عنه . وقد فاتني ان اخبرك ان للامرأة طفلاً آخر يستطيع المشي ولكن الفرق بين الاثنين عظيم . الطفل الرضيع مثل القمر على وجهه ملامح الاكابر

— وهل تعرفين البيت الذي نمتِ فيه ؟

— نعم اعرفه .

— وهل تعرفين الفتاة اذا رأيتها ثانية ؟ وهل عرفت اسمها ؟

— لم ارَ وجهها في الليل ولكني سمعت الامرأة تناديها هيلانة . ولما نهضت باكراً اشكر الله على سلامتي لم تكن هناك .

— حسن . حسن . روحي وام ابرهيم الى البيت — يا ام ابرهيم . فجاءت الامرأة تلبي نداء سيدها . فخاطبها قائلاً — احسني وفادة لطيفة . عشيها . وافرشي لها احسن فراش عندك .

غابت الشمس والقس جبرائيل جالس عند ضفة الغدير يسمع خرير الماء وينكت الارض بعصاه . فطرق اذنه صوت ابرهيم يغني المواليا على رنات اجراس المواشي . فصعّد الراهب الزفرات يبارك الانعام وما شابهها في حياة البشر من شباب آبد وقلوب خالية ساذجة . نظر الى السهل وقد لاحت في اساريره خلال اثلامه البنية سيماء الجذل والرضى فخيل اليه ان كل ثلم فيه انما هو فم ينطق بالشكر والتسبيح . فقد كان نهاره مقدساً . قدسه الانسان العامل والقنوع اذ القى اليه حبة الحياة ليعيدها في الفصل الآتي سبعين حبة — ورفع اليه هنالك صورة جميلة من صور السعادة البشرية التي يصورها

اله الحقول ورب البعث والخلود — صورة الفلاح وابنه عائدان في الغسق الى البيت — يسوقان المواشي ويغنيان المواليا · ابوابرهيم وقد حمل المحراث الطويل عَلَى كتفه يسنده بالمساس — وابنه الشاب وقد حمل النير والمعول فوق حمل من الحشيش الاخضر و « الابلق » و « الكحلاء » واجراسهما تطن عند باب الليل طنيناً شجياً يسيرون كلهم الهوينآ، عائدين الى حيث الحب، يلاقيهم بابريق الحياة والليل يقدم لهم كأساً مزيجها مسك وتسنيم· شاهد القس جبرائيل هذا المشهد فهزّ رأسه اسفاً قائلاً — جميل · جميل · ولكنه ناقص · اين انتِ الان يا مريم ؟ مريم ابنة ساره اين انتِ ؟ أيّ بحر من أبحر الحياة تتقاذفك امواجه ؟ أي نعيم يكحل عينك ؟ أي جحيم يحرق فوءادك ؟

صعّد الزفرات وعاد ينكت الارض بعصاه اسير المواجس ، سمير الاشجان والذكرى · ولّت اشباح الغسق مدبرة تفر من الليل · وما الليل الا مونس الاشباح · جآء يشعل مصابيحه ويدور في الافلاك دورته السرية فيرافقه القمر وقد اطلّ من شرفته في المرمل يبتسم ابتسامة غنجت لها البحيرة وابرقت اسارير الاحراج في الحقول وفي الجبال · فجعلت تصر الجنادب عَلَى العيدان صريرها · وينوح فوق البحيرة الحمام · وتصوت فيها الاسماك والامواج الجارية من الاردن تهز في القلب سريرها ·

مشى القس جبرائيل في السهل مكشوف الرأس والهواء العليل يناعم وجهه وينعش فوءاده والليل يونسه بانواره وسكونه فهزّ رأسه اسفاً قائلاً —

جميل هذا المشهد جميل · ولكنه ناقص · اين انتِ الان يا مريم ؟

لما فرّت مريم الربيع الماضي هاربة منه كما يهرب الغسق من الليل او الليل من الفجر ظل القس جبرائيل شهرين فريسة نزاع في نفسه شديد بين ما كان وما ينبغي ان يكون ، بل بين الحقيقة والخيال ، بل بين واجب قدسه الله ومحكمة قدسها العقل وخبر الزمان · فهمّ مرة ان يتبعها مستقصياً فعادت الحكمة تملك عليه نفسه فقوض امره الى الله · ونفض من امرها يده · ومن امر ولدها ايضاً · ولكنه لم ينقم عليها · ولم ينبذها من قلبه · ولم ينسها مرة في صلواته · اقام في بيته قرب كفرناحوم معتزلاً العالم والناس ناسكاً لا على شكل اجداده النساك بل ناسكاً عاملاً — ناسكاً فلاحاً ·

ومرّت الايام تتلو الايام ومريم وذكراها مقيمان في فؤاده يعطّران صلواته وتأملاته · وما نام ليلة قبل ان يبتهل الى الله من اجلها — صنها ربي قها شر الجهل وشر الاهواء وشر الاطماع وشر المستهترين من الناس ، وشر المآثم والموبقات · اكحل جفنها باحلام نعمتك · وابعث في ناظريها بهاء نورك · سدد خطواتها · وثبت في سبيل الخير والحق قدمها · يا فتاح يا رزاق ! افتح لها باباً لا يحزنون من يدخلونه · ارزقها خيراً لا ينعمون من يحرمونه ولا يطغون من يرزقونه · يا حليم يا رحيم ! اسبغ عليها من سوابغ حلمك · افض عليها من فيضان رحمتك · اهدها السراط المستقيم حيث كانت وحيث حلت · واذا كان عبدك الذي يضرع الان اليك سعياً في يقينه ، ثابتاً في ايمانه ، قويماً في رأيه ، صافياً في وجدانه ، فاهدها ربي اليه ·

اهدها اليّ · اهدها الى ابنها · آمين ·

صلى هذه الصلاة تلك الليلة حسب عادته واضاف اليها الجملة الاخيرة ذاكراً ولدها · صلى هذه الصلاة في السهل وهو عائد الى البيت يفكر بمريم شيقاً اسفاً · ويفكر مستبشراً بما كشف له في اصيل ذاك النهار · ولما وصل الى البيت جعل يقلب في اوراقه فعثر عَلَى الكتاب الذي كان يطلبه · الكتاب الذي بعث به اليه اخوه يوسف يوم كان في بيروت · فاستلمه بعد ان سافرت مريم الى فرنسا · فاهماله يومئذٍ غضباً قانطاً · ولكنه اعاد تلك الليلة قراءته

اخي العزيز القس جبرائيل اطال الله بقاءه

اقبلك وابثك اشواقي وارجو ان تكون بخير · ثم اخبرك انني اجتمعت والحمد لله بابني عارف وهو الان في لبنان · وقد سلمته كتابك واطلعته عَلَى الاخر منك لي فآنست منه قبولاً بما تنصح · وانا والله يشهد عَلَى ما اقول عامل برأيك ساعٍ سعيك في سبيل تلك الفتاة · ومتى عدنا انا وعارف الى الناصرة نتمم ما فيه خير الجميع ان شاء الله ·

اخوك

يوسف مبارك

والان وقد علم ان الولد ولد مريم لم يزل حياً استحث سابق عزمه واستنهض راقد قصده وهو يعزي نفسه قائلاً — ما لا يبلغ كله لا يترك جله · وكأن الله ارسل لطيفة وقد اهداها الى ذاك البيت لتنبهه الى واجب اهمله اثما · فنهض صباح اليوم الثاني باكرا يقول لها — تعالي معي

وذهب ولطيفة الى السراي في طبريا ليقابل القائمقام ·

—(الفصل الرابع عشر)—

الحاج محيي الدين صاحب الكازينو بالقاهرة رجل قصير بدين لعين (نريد بالنعت الاخير ما هو متعارف من معناه بين الناس عندما يقفون عنده يجرون اليآء منه معجبين فيقولون مثلاً فلان لعيـــن ! ليصفوه بالحذق والمكر والدهآء) فالحاج محيي الدين اذاً قصير بدين لعيـــن ! وانه وان ارتدى الحرير لاصلب خُلقاً وخَلقاً من قماش الخيام الانكليزي . له رأس ككرة المدفع كبير مستدير . تعلوه عمامة خضراء صغيرة . تحتها اذا اقبل جبهة عرضها خدّاع . واذا ادبر سامد الرأس تبدو عكنات رقبته تحت تلك العمامة كأمواج النيل او كعدد الفيل . وهو غليظ الشفتين كذلك وعريض الوجه لحيم . اما انفه المشوه فيكاد لصغره يضيع في وجهه . وعينـــاه الصغيرتان الزايغتان تنفران من انفه . وشاربه المقصوص هو بين ذاك الانف وتلك الشفة كخيال قضيب بين كهف وكثيب .

وقف الحاج محيي الدين مودعاً السيدة فشيعها الى الباب تعطفاً وهو يعد سبحته ويسبح الله . ويستغفر الله . ويستعين بالله . ثم عاد الى مجلسه

في زاوية الديوان وحبات الكهرباء الكبيرة تتقطع بين انامله الصفراء كأنها تردد الصدى لنبضات قلبه · ثم جلس مسترخياً يبسط ذراعيه · ويزم شفتيه · وقد انزل العمامة الخضراء حتى حاجبيه · ولسان حاله يقول — انا لله وانا اليه راجعون ·

وكان شريكه عاطف بك جالساً الى منضدة يدخن سيكارة ويراقب حركاته معجباً باساً · فقال محيي الدين يخاطبه — اخطأت يا اخي اخطأت · فاجابه عاطف بك — انت أعلم بالجواري وانا أعلم بالراقصات ·

فعمد الحاج محيي الدين الى الاركيلة يسكن بها غيظه ثم قال — ولكن رقصها جميل · اجمل ما رأيت حياتي — رقص جديد ، مبتكر ، غريب ، مدهش · وهو فوق ذلك رقص ادبي تزينه الحشمة لا خلاعة في حركاته ولا بذاءة في وقفاته — ولا ··· فاغرق عاطف بك في الضحك وقال — اراك تتكلم كشيخ من مشايخ الازهر · الله · الله ! أحامل « النسخات » يحمل عَلَى الخلاعات ؟ أصاحب « الكازينو » يمسي صاحب كرامات ؟ الله · الله ! انت مازح يا محيي الدين · أو تظن الرقص الادبي يصلح الامة ؟ أتظنه يسر جيش الاحتلال ؟ اذا كنت راغباً بالجلاء فاعرض عَلَى اصحابنا الانكليز هذه الرقصة · نبه الحزب الوطني اليها ·

— لا تعجبني هذه المداعبة منك · فان رقصاً عارياً من الخلاعة ···· — لا ينفعنا ولا ينفع البلاد · ابناء القاهرة لا يقبلون عَلَى مثله وعساكر

الانكليز يفرون هاربين منه . وان اقبلوا عليه بادىء بدء فلا يلبثون ان يملوه . رقص هذه الفتاة يخاطب العقل . والمصريون يودعون عقولهم في البيت قبل ان يشرفوا « الكازينو » والجندي الانكليزي — ولكنه سبحانه تعالى لا يُثقل الجندي عقلاً

— عَلَى رأسي رأيك في الجندي . ولكني لست من رأيك في الفتاة . فان في رقصها السحر الحلال . يعبث بالقلوب ولا يستأذن العقول . وما قولك بالراقصات الروميات عندنا . فان رقصهن عارٍ من رغبة الناس من مظاهر الخلاعة ويكاد يكون بليداً ومع ذلك فالاقبال عليهن عظيم .

— لانهن افرنجيات يا اخي يا محيي الدين . نفاية الافرنج هي اعلاق في ذي البلاد . خرز اوربا هو في نظر المصريين بل الشرقيين درر غوالي . صلِ عَلَى النبي ! ولا يفوتنك ان الراقصات الروميات لا يكسفن « البلديات » عندنا . كلهن افرنجيات ومصريات من طبقة واحدة فناً وعقلاً وحسناً . وان شئت قل من طبقة وسطى او واطية في الفن والعقل والحسن . وجمهور الناس من ذي الطبقة . اما الخاصة فحسبهم ليلة واحدة من الرقص الادبي في السنة . حسبهم « البالو » الخديوية . لا . لا . لا وسط عند هذه الفتاة الناصرية ولا وسط في نصيب مديرها منها

فرفع الحاج العمامة فوق جبينه عجباً وهو يزلق بنظره عاطف بك الذي استمر يتكلم غير حافل فقال مكملاً الجملة — فاما ان تكسره واما ان تغنيه . فلاح الارتياح اذ ذاك في وجهه وقال — ولماذا لا نختبرها اسبوعاً

واحداً او اسبوعين ؟ اذا كنا لا نقدم لابنآء بلدنا الجميل من الفن فكيف لهم بمعرفته ؟ وليس من العدل ان نحكم عليهم بفساد الذوق قبل ان نختبر ذوقهم ·

— انا عالم يا محيي الدين بما يجول في صدرك · صل عَلَى النبي ! ولكن ظهور الناصرية عَلَى مسرح « الكازينو » يغير خطتنا تماماً · فنفقد الزبائن الذين لا يروقهم غير رقص ا··· الرقص الذي يخاطب الحواس بالقلم العريض · وجيش الاحتلال في البلاد يزداد يوماً فيوماً · ولا نعلم ما نكسب من الطبقة الراقية · لو كنت مدير « تياتر » في اوربا لما ترددت والله ترددي الان · فلا انكر ان في منشأ الفتاة وفي فنها وجمالها وطموحها وهوسها ما يسترعي الانظار · لست بجاهل عالم التمثيل في اوربا · ولقد احطت علماً بطرق المدراء هناك وحيلهم · وكأني باحدهم وقد حظي بلقآء هذه الفتاة الناصرية وادرك السر في امرها وفنها يعلن عنها بالخط العريض فيقول — الناصرة منذ الفين سنة والناصرة اليوم مهد الدين ومهد الرقص · مريم الناصرية ترقص رقصة المريمات في اسبوع الالام ! ! ولكن بلادنا بلاد اسلامية · فلا ذاك الدين قبلت ولا ذا الرقص تقبل اليوم

— انت مخطىء في ظنك · علي الخسارة اثنآء اسبوعين نختبر الناصرية ورقصها · علي وحدي ·

— ليست جارية تتاجر بها يا محيي الدين · وقد ظهر لي من حديثها ونظراتها انها صعبة المراس حادة المزاج

— عَلَى عاتقي امرها ·

— واذا مثلت لك السماويات في رقصها ···

— والجهنميات ايضاً فانا المسئول

— وانا قابل · ليكن ما تشاء · وان شئت ان تدخلها حريمك بعد ان تمتحنها في « الكازينو »

— دعنا من ذا الهذر يا اخي ·

— بل هذا جد مني · فقد اهتنها في حديثك فاغرورقت عيناها وهذا دليل واضح انها احبتك · عشقتك ·

— انا اعلم بحيل اللقيطات الشريدات

— نعمتَ بعلمك ·

. . . . .

اما مريم فعادت الى منزلها بعد ان قابلت صاحب « الكازينو » ومديرها لتفتش عن الكتاب الذي اعطتها اياه مدام لامار الى جمال الدين باشا احد مدراء البنك الفرنساوي في القاهرة · وكانت قد اهملت هذا الكتاب لانها لم تشأ ان ترجع الى الخدمة في البيوت وآلت عَلَى نفسها وان كسرت في باريس ان تفوز في مصر · فزارت عند وصولها الكازينو لتشاهد ما هو معروض عَلَى مسرحها فتعرف محلها من الاعراب فيها · فسرَّها ما شاهدت وساءها معاً · وقالت وهي خارجة — ها هنا رزقي · ها هنا بداءة حياتي الفنية · ها هنا فوزي · ولكنها اقرت لنفسها بعد المقابلة في اليوم الثاني ان لم تزل

الاحلام تخدعها · وكانت تظن ان مدراء التياترات في مصر اسهل مراساً منهم في باريس · ولم يخطر في بالها انهم اكثر تعنتاً واقل ادباً ومعروفاً · فقالت تخاطب نفسها وهي تفتش في حقيبتها عن كتاب مدام لامار — وماذا يهم اذا المدير فحص الراقصة كما لو كانت جارية معروضة في سوق النخاسة أو جسها كما لو كانت شاة ، او امرها ان تمثل امامه عارية ، فهو لا يهينها ولا يحتقرها اذا كانت يتيمة او بائسة مثلي · وهنا في بلادي يهينني المدير ويشيعني الى الباب · لو استطعت والله لذبحته ! لذبحته ! ابن ستين كلب يعيرني بأصلي — اصلي ! اصلي ؟

وقفت مريم فجأة تسائل نفسها فابكاها السؤال · ذكرت لاول مرة ابويها فحرقتها الذكرى · خنقتها العبرات · وقد يستغرب القارىء قولنا انها لم تذكر ابويها حتى الان · وقد نكون اخطأنا التعبير · لما كانت مريم في الدير ادركت غامض اصلها ولكنها اقامت هناك وكثيرات مثلها فلم تبالي · ولم تذكر والديها شوقاً وحنانا · وبعد ان خرجت من الدير اقامت في بيت مبارك وفي ظل القس جبرائيل خلية البال ، مشتتة الآمال · فلقيت من الاعزاز ما اشغل نفسها عن الاكرام · ومدام لامار لكرم في اخلاقها تجاهلت ما ادركته من اصل الفتاة لكي لا تهينها ولا تذلها · وكذلك نجيب مراد فلم يفه مرة بكلمة يشتم منها معرفة ما يحزن مريم ذكره · ولا سئلت مرة في باريس عن اصلها ولا نظر احد اليها شذراً وازدراء ·

واما الان فصاحب الكازينو المعجب بفنها وبحسنها وبمواهبها يخشن لها

الكلام في اول مقابلة وينظر اليها نظرة الازدراء وقد مازجها السرور والرضاء كأنه يقول — انتِ في قبضتي ولا بأس بك · فادركت لاول مرة ان من الرجال من ينظرون اليها كأنها غنيمة باردة · فساحت بها الافكار الى باريس ثانية فجمعتها هناك بنجيب مراد — ذاك الذي احبها كما تحب الفراشة الزهور او الفارس الجياد · فجعلت تقابل بين الاثنين وتقول — شتان بين من يخدع فتاة ويكرمها ومن يهينها ويخدعها · شتان بين اديب دقيق الحيل كريم النفس وجلف غليظ الرقبة غليظ الشفتين · كرهته لاول نظرة قبل ان ينوه بكلمة · وبعد ان تكلم وددته ميتاً عند قدمي · ميتاً · ميتاً · سيعلم ابن الكلب

ان الفتى من يقول ها انا ذا ليس الفتى من يقول كان ابي

أو لا يحق للفتاة البائسة مثلي ان تتمثل بقول الشاعر كالفتيان ؟

لا تقل اصلي وفصلي ابداً انما اصل الفتى ما قد حصل

واصل الفتاة ايضاً · اصل الفتاة ايضاً ما قد حصلت ·

وهذا ينبغي ان يكون ولكن الكائن اليوم غير ذلك · وان عقيدة الناس الاجتماعية بمريم وامثالها لمثل عقائدهم الدينية قديمة العهد ، كثيرة العهود والقيود · والمتمردون عليها ينفعون المجتمع الانساني وقلما يسعدون

نوّرت نفس مريم في بلاد الجليل فاستمدت حياة من تربة رباها ، وهواء حقولها ، ومياه عيونها ، وسماء بحيرتها ، وجمال مروجها ، واريج احراجها فكانت وردة برية سماوية تليق ان يزين بها الناسك مذبح ألهه · ونفس مريم

التي بدأت تنور في المدن في معترك الحياة ترويها مياه الاجتماع الآسنة، وينذيها هواء التمدن الفاسد جعلت تنمو كزهرة الازاليا كبيرة ، قوية ، قانية ، شديد ساقها ، متينة بتيلاتها ، قليل ، وا اسفاه عبيرها . وقد أثرت فيها الحمية اكثر من سواها . فغيرت الجفوة طباعها . وضاعف الفشل نمو الازاليا في قلبها . فقد كانت مستهترة في حبها — مستهترة كوردة الحقل لا تروعها هبوب الرياح ، ولا ظلمات الليالي . فاصبح قلبها كالازاهر الجوية التي تصونها تارة من نور الشمس وتارة من الظل وطوراً من الهواء . أدركت مريم هذه الحقيقة ولم تدرك بعد كيفية العمل بها . فتعرض ازاهر نفسها الى الشمس والى الظل والى الهواء في الاوقات اللازمة النافعة . ولا مشاحة ان العمل جهلاً اسهل من العمل علماً . وقد يشفي هذا حيناً ويسعد ذاك احياناً . وان تحب الفتاة وتستسلم خير لها من ان تحب وتتردد . وان عذابها وهي تحب راغبة طائشة لاقل منه وهي تحب خائفة مرتابة محتقرة كارهة . والحق يقال ان قد دخلت مريم في هذا الطور المحزن من اطوار الحب . ولم ترفع فوق مدارجه السوداء غير واحد في العالم هو القس جبرائيل .

— ربي ! وهل القس جبرائيل ابي وهل يحب الاب ابنته اكثر من حب الراهب فتاة لقيطة ؟ أيستطيع ان يزيد ابي عَلَى ما اسلفني القس جبرائيل من الصنع الجميل والمعروف والاحسان ؟ بل لو كان ابي عالماً بي وبسقوطي في تلك السقطة المهلكة أكان ينقذني يا ترى من البلاء والعار ؟ أيرعاني ابي ويكرمني ويحبني كما رعاني القس جبرائيل واكرمني وخدمني واحبني ؟ لا

اظن ذلك . لا . لا . بل كان يطردني من بيته لو علم بذنبي الذي هو ذنب غيري . ويلاه ! ما امر الحياة ! الحق معك يا قس جبرائيل الحق معك .

واخذت الذخيرة وطفقت تقبلها وتبكي

— ابي . ابي . اين انت تحميني من الذئاب البشرية ؟ آه يا قس جبرائيل حبذا انت قريباً . لا . لا . مستحيل ان يكون ابي . فلو كان ما رمى بولديه في البحيرة . ولدي ! وهل انا اعلم بتصاريف الزمان واسرار التقادير منّ حمام البحيرة واسماكها ؟ لا تكره شيئاً لعله خير . انا الان اسعى لنفسي واكاد اهلك جوعاً . ولدي ! لقد اغناه الله من شقآء الحياة . ووالدي ؟ مالي ووالدي فـلا شك انه اجرم عَلَيّ امي كما أجرم عليّ . قد تكون امي خدعت كما خُدعت ، وأذلت كما أذللت ، وشقيت كما شقيت . اواه ! امي اين انتِ الان ؟ أفي عالم الاحياء انتِ ام في عالم الاموات ؟ امي ليتك قربي تأخذين بيدي الان ، ترشدينني ، تسليني ، تدفئين نفسي ، تجبرين قلبي الكسير ، تشفين غليلي بقبلاتك وبكلماتك ، تعلميني الكلمة التي فيها صيانة عرضي وصيانة اسمك .

قضت مريم تلك الليلة اسيرة الهموم والاحزان . فخلعت ثيابها وهي تحن شوقاً الى امها . واطفأت القنديل وهي تلعن من اهانها

وفي تلك الليلة حلمت حلماً رأت فيه امها وسمعتها تقول — اخرجي من القاهرة . عودي الى فلسطين . اقيمي في ظل القس جبرائيل . ولكنه حلم من الاحلام فلم تحفل به . ونهضت صباح اليوم التالي ترتدي ثيابها لتذهب

الى البنك الفرنساوي تطلب مقابلة جمال الدين باشا · فقد وطنت النفس على ان تقيم في القاهرة ولو خادمة في بادىء امرها او معلمة او مربية · افلعت مكرهة من جون الامال تسلم الى الحاجة شراعها · وهي تعلل النفس بالعود القريب · والفوز العجيب · واما الان وقد نفد مالها فلا بدّ من السعي في غير السبيل سبيل المجد · وقد ينفعها الان كتاب التوصية الذي بيدها · وبين هي خارجة من منزلها تقصد البنك الافرنسي التقت في الباب بصاحب الكازينو الحاج محيي الدين فوقفت سامدة الرأس مدهوشة ·

— اريد مقابلتك يا ست مريم

— تفضل ·

— أعلى الرصيف ؟ أفي الشارع تقابلين من يحمل اليك الاخبار السارة ؟

— أو مثلك يحمل الى مثلي اخباراً سارّة ؟

— لا توءاخذيني · فقد بدر مني البارح ما اسفت له ·

— عذرك مقبول · وماذا عندك غير الاعتذار ؟ ماذا تريد ؟

— اريد صالحك ·

— كثر الله خيرك · صالحي الان بيدي · وهمت مريم بالذهاب

— كلمة واحدة لابرهن لك في الاقل على حسن نيتي ورغبتي في قضاء حاجتك · وفي خدمتك ·

فوقفت اذ ذاك مريم كأن خطر لها خاطر غيّر لهجتها وخطتها ·

— تفضل · تكلم ·

فمال الحاج محيي الدين برأسه ينظر اليها متبرماً ويشير باسطاً ذراعيه الى الباب ·

— لا حول ولا · تفضل ·

فمشى الحاج في الزقاق وراءها فوقفت امام الباب باب غرفتها ففتحته وهي تقول — تفضل · ادخل واجلس ريثما اجيئك بعلبة السكاير ·

— لا لزوم للسيكارة يا ست مريم

فلم تحفل مريم برجائه بل ذهبت تسر الى البربري خادم البيت كلمة وعادت تقدم الى ضيفها سيكارة · وتقول

— ارجوك ان تجلس · وظلت هي واقفة قريب الباب المفتوح ·

— اعلمي يا ست مريم انني معجب بكِ وبرقصك وبمواهبك واحب من صميم قلبي ان تظهري عندنا في الكازينو · وقد تباحثت وشريكي في شأنك بعد رجوعك —

وسكت فجأة يحدجها بناظريه · فابتسمت مريم شاكرة

— وسيكون لكِ ما ترغبين اذا ···

ووقف اذ ذاك الحاج محيي الدين يخطو نحو مريم خطوات ادركت سرها · فلاقته بكرسي تقدمها ملاطفة وتقول — تفضل اجلس فازاح الحاج الكرسي وتقدم نحو الباب ليرمي سيكارته خارجاً · فأدهشته مريم اذ اسرعت الى الباب وهي تقول — ارجوك · لا تكلف نفسك · انا اغلق الباب

وغلقت مريم الباب ووقفت في وسط الغرفة تنظر الى الزائر ولا تبدو

حراكاً · فدنا منها معجباً بهذه الحركة وهذا اللطف وقبض على يدها بيسراه · يداعب بيمناه خدها ·

فاحست مريم كأن علقات تسرح في وجهها ولكنها وقفت متجلدة اكالتمثال ·

— لا تخافي · انا صديقك · وستكونين في « الكازينو » تحت رعايتي فلا يعتريك ريب من ذلك ·

فتجلدت مريم وهي تحاول اخفاء اضطرابها وقالت ملاطفة

— هذا جميل منك ·

وقرع اذ ذاك الباب قارع فتظاهرت بالرعب وبعدت عنه تتنفس سراً الصعداء · فعاد الحاج محيي الدين الى الديوان يشعل سيكارة

فتحت مريم الباب · فدخل الخادم قائلاً

— رسول من البنك الفرنساوي يقول ان المدير يقابلك اليوم الساعة العاشرة افرنجية ·

— ويلي ! قد فات الوقت · اعذرني ، يا سيدي محيي الدين · اعذرني اليوم · لي عند المدير حاجة تقضي علي ان اقابله حالاً ·

ومدت اليه يدها غانجة باسمة فصافحها ثم ربتها · وخرجت واياه يتحدثان في ما يختص بظهورها على مسرح الكازينو وبراتبها · ثم ودعها عند الباب قائلاً

— سأراك غداً فتوقعين على الوثيقة ·

— غداً ان شاء الله اتشرف بزيارتكم في « الكازينو »

— لا بل انا اتشرف بزيارتك والوثيقة في جيبي

— كما تريد . اتوقع قدومك صباحاً في مثل هذا الوقت .

وافترق الاثنان وكلاهما راضٍ بما كان . ولم يكن سرور مريم بما انقلب في تيار حظها اشد من سرور الحاج بما ظنه فوزاً في غزوته الاولى . ولكن الفتاة جعلت تفكر في حيلة اخرى تخلصها من مخلصها الى ان يتم لها ما تريد — الى ان تستلم الوثيقة منه . ولم يضطرها الامر الى كثير تفكير لان خبرتها في باريس تلبي الان طلبها .

ولما جاء الحاج محيي الدين صباح اليوم الثاني دهش لوجود رجل آخر عند مريم . فطمأنت باله قائلة بعد ان رحبت به

— حضرته مدير المقاولات

— صحيح . صحيح . لقد فاتني امره

وجلس على الديوان يعد سبحته ويستغفر الله . ثم استخرج من جيبه الوثيقة فقدم منها نسخة الى مريم لتوقع عليها ففعلت . ثم وقع عليها مدير المقاولات واعادها الى محيي الدين فقدم اليها نسخة اخرى وقد وقع عليها هو وشريكه . وبعد انجاز العمل جاء الخادم بالقهوة والسكاير . وجلست مريم تحدث زائريها بما رأته من جمال مصر . ثم قال مدير المقاولات وهو ينظر الى ساعته

— اذا احببت ان اشيعك الى الفندق يا ست مريم فالوقت قد حان . تفضلي .

— قد فاتني ذلك . اشكرك لتذكيرك اياي . ولكني لا أكلفك ...

فقاطعها المدير قائلاً

— ليس في الامر ثقلة . فان مكتبي في تلك الناحية والعربة تنتظرني

— لا تؤاخذني يا سيدي محيي الدين . يظهر ان حاجة في البنك بهذه البلد لا تُقضى بيوم او بيومين . وقد وعدت المدير ان اقابله اليوم ايضاً .

ولبست مريم قبعتها وعمدت الى شمسيتها تتكىء عليها وتقول

— الامر هام جداً يا سيدي . ولا أعلم كيف أكفر عن سوء ادبي . يا للفضيحة ويا للعار ! عذراً أرجوك . فالعذر من شيم الكرام . وغداً اقابلك ان شاء الله .

فاضطرب الحاج محيي الدين ولم يفه بكلمة جواباً . ولكنه أخذ يد مريم الممدودة اليه فصافحها . وأحس بنظرة من نظراتها تخرق كالشرارة فؤاده ، فزادت بنار وجده اضطراماً .

وفي ذاك الاسبوع كانت تذهب مريم الى الكازينو كل يوم لتتمرن عَلَى الرقص . وكانت تلجأ الى أدق الحيل لتتخلص من أشراك الحاج محيي الدين . أما عاطف بك فأحسن معاملتها وبالغ باكرامها . واشار عليها ان تغير اسمها لان مريم اسم عادي ، بل اسم مسيحي . ولا يستوقف الانظار ، ولا يليق براقصة . فاقترح عليها اسم « غصن البان » فقبلت مريم الاقتراح

وبينا هي عائدة الى منزلها بعد ظهورها عَلَى مسرح الكازينو الليلة الاولى لاح لها قرب بابها شخص تحققت من عمامته الخضراء ورأسه الكبير انه الحاج

محيي الدين . وكان قد سبقها الى منزلها تلك الليلة ولبث ينتظر قدومها فأمرت الحوذي من ساعتها ان يستمر سائقاً . فمرت العربة مسرعة امام بابها وهي متوارية فيها يحجب « الكبوت » وجهها . فلم يرها الحاج المطارد . وظل ينتظر في قهوة قرب ذاك المنزل حتى الساعة الاولى بعد نصف الليل . فعاد بعدئذٍ الى بيته يصر اسنانه غيظاً ويقول

— أبنت بنت الكلب تخدعني ؟ أتصدني وترغب بغيري ؟ أتتفلت من يدي فتعلق عَلَى دبق الاوغاد ؟ فلا شك انها في احدى الحانات الان تشارب وتداعب اجلاف جيش الاحتلال . بنت ستين كلب ! ستندم والله عَلَى فعلتها . ستندم ولا ينفعها الندم .

اما مريم وان ازعجتها مباغتة الحاج فلم ترعها ؛ ولا اعترضت سرعة خاطرها ؛ ولا أفسدت عليها صفاء نفس ذاقت لاول مرة لذة الفوز في سعيها . ولما سألها الحوذي — الى اين يا ست ؟ بعد ان اجتازت العربة الشارع المقيمة فيه اجابته عَلَى الفور — الى الجيزة — الى الاهرام

ورضيت بعد الفكرة ببداهتها لان الليلة ، وان لم تكن مقمرة فقد كانت ناعمة منعشة ، خفيف ظلها ، عليل هواؤها . فراح الحوذي يحث بالسوط بخيله ، ومريم تقول في نفسها — نزهة ساعة فيفرجها الله

ولكن بعد ان اجتازت العربة كبري النيل ملكها وهم مخيف لعلمها انها وحدها . وفكرت بما احتالت به عَلَى الحاج محيي الدين فظنت انه رآها لما مرّت امام بابها وانه الان يقتفي اثرها . فسألت الحوذي خائفة

..

— أترى عربة وراءنا ؟ فقال — لا · فقالت — قف قليلاً ·

واصغت ثم قالت — ان عربة وراءنا قريبة منا · اسرع · اسرع ·

فامتثل الحوذي امرها · ودخلت العربة مسرعة في طريق الاهرام الجميلة بين صفين من شجر السنط والكينا تحت قناطر من اغصانها المتعانقة ، ولا صوت يزعج سكينة الليل غير صوت حوافر الخيل العادية ·

وما هي الا برهة حتى رُفع الى مريم خيال الهرم الاسود كأنه قبع الخفاء عَلَى رأس الصحراء · فاوقفت الحوذي ثانيـة وهي لم تزل اسيرة الرعب والاوهام وسألته

— وهل من مبيت عند الاهرام ؟

— هناك نزل جميل يا ستي

— حسن · اسرع · اسرع ·

وبعد قليل وقفت العربة قدام النزل عَلَى حدود البادية فترجلت مريم والخوف والجرأة يتناوبانها · فاذا هي لاول مرة امام الهرم الكبير الواقف كطود من الظلمة في بحر من الرمل راقدة امواجه ؛ تحت سماء هجرتهـا نجومها ، بل هو قلب الليل وقد جسمه الزمان ، فهالها خياله ؛ وهالها ظلامه ، وهالتها الوحشة المخيمة حوله وفوقه — وحشة البادية ، ووحشة الليالي ، ووحشة الاجيال والازمنة ·

ومع ذلك فقد احبت مريم ان تشاهده قريباً في تلك الساعة فسألت الحوذي ان يرافقها · فتردد خائفاً ·

— ما بالك ·

— مالنا وله يا ست · الهرم يتكلم في الليل · وربي الموتى فيه ينهضون ليلاً ليتنزهوا عَلَى الرمال وحق النبي !

— كلام صبيان · امشِ معي · امشِ قدامي ·

فخجل الحوذي ومشى مترددا في الطريق التي توصل الى الهرم الكبير وهو حائر في امر هذه السيدة معجب بشجاعتها واقدامها · وبينا هو صاعد في الدرجات تعثر بشيء صرخ بين قدميه فهلع قلبه ورجع ادراجه · فنهض الحمّار الذي كان نائماً هناك مذعوراً ينادي رفيقه حمّاراً آخر نائماً قربه يدعى محيي الدين ·

— يا محيي الدين · يا محيي الدين ·

فوقفت مريم مبهوتة لاستماع هذا الاسم هناك وعادت تسارع الى العربة وتسائل نفسها قائلة — كيف سبقنا اللعين كيف سبقنا الى الاهرام · ثم امرت الحوذي ان يعود الى البلد مسرعاً ·

— قلت لكِ يا ست ان الهرم يتكلم وان الموتى فيه يخرجون ليلاً للنزهة · وحق النبي ان من تعثرت به منهم ·

وسقط بسوطه عَلَى الخيل يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم

ومريم قد اخذتها الرعبة وملكها مما توهمته الخوف باتت تلك الليلة وطيف مخيف ، طيف الحاج محيي الدين يلازمها في يقظتها ويطاردها في نومها ·

—(الفصل الخامس عشر)—

الرقص فن من الفنون الجميلة تتحرك النفس في السامي من انواعه قبل ان يتحرك الجسد · ترفعه العفة ؛ فتحطه الخلاعة · تزينه حركة ، فتشينه حركات · يعززه الذكاء اذا قرن الى رقة وكياسة ، وتفسده الخفة اذا قرنت الى فواحش الفكر وسوافل الحواس ·

الرقص سراج وهاج يبهر فيسحر · وهو شعلة نار تحرق ولا تنير · هو وحشي اذا ملكته الربلات وسادته الجوارح · وهو سماوي اذا استخدمت هذه فيه كما يستخدم الرسام الالوان والشاعر الالفاظ والقوافي · فاية ذات نهدين يا ترى لا تستطيع ان ترجرج صدرها وتذبذب ارداقها فتهيج الحيوان في الانسان ؟ ولكن راقصة ترفع بك الى ما فوق المبتذل من الشهوات دون ان تلجأ الى المتبذل من حركات الراقصات ، فتشخص اليها مبهوراً مسحوراً خاشعاً ، وقد نسيت ذاتك الحيوانية السافلة ، لاجدر ان تعد من ارباب الفنون بل من نوابغ الدنيا ·

ورقص غصن البان الذي لم يشاهد مثله في القاهرة ابهر ابهاراً على ما في بعض مظاهره من ركاكة لا تواخذ بها المبتدئات · فصفق الناس لها اول ليلة بدت امامهم واستعادوها مراراً · وما لبثت ان حققت قول الحاج محيي الدين وظنه · ولم يكن الحاج ليود ان يحقق شيء من ذلك بعد ان اخفق

سعياً في مطاردة غصن البان · فكيف له الان يطردها انتقاماً منها على صدها واستكبارها وقد صارت للكازينو مورد رزق عميم · واصبحت في مصر اشهر من اهرامها فكثر المعجبون بها ، الخاطبون ودها ، المتغزلون بجمالها ، العاشقون فنها وحسنها · غصن البان حديث القهاوي والحانات بل حديث المجالس والدواوين · فقد كان استحسان الحاج رقصها رمية من غير رام · وصار يود اذلالها بل اهلاكها · ولكنه تمالك نفسه واتخذ خطة في معاملتها جديدة · وهو يقول في نفسه — لقد اصبحت ولي نعمة من كانت ولية نعمتي

والحاج محيي الدين يدرك الحقيقة ولا يموه على نفسه فيها · فقد ادرك ان غصن البان اكسبت الكازينو شهرة ادبية فصار يؤمها الطبقة الراقية من اصحاب الكياسة والذوق والادب · والمدير عاطف بك رفع اسعار تذاكر الدخول لتليق بهذه الطبقة الرفيعة من الناس فتضاعف ايراد الكازينو وتضاعفت مع ذلك الحضور · حتى ان النساء كن يستصحبن بناتهن (لسنا متأكدين هذا الخبر لاننا ننقله عن صحف الاخبار) ليشاهدن رقص غصن البان « السامي فناً ، الحلال سمعاً ، العاري من الخلاعة ، المجرد من فواحش الاشارات والحركات » ثم اثنت الجريدة التي اقتبسنا منها هذه الكلمات على صاحب الكازينو الحاج محيي الدين « الذي لا يألو جهداً في البحث عما يهذب النفس ويرقي الاخلاق فيعرضه للناس مهما كلفه ذلك حباً بتطهير المسارح والمراقص من اسافل الخلاعات ، بل غيرة على ذوق الامة من ان يعتريه الفساد »

وقد افاضت الجرائد في الموضوع فتحمس الكتاب والشعراء واغرقوا في

الثناء على الكازينو وربة الرقص فيها وفي الطعن على بقية المراقص في البلد والراقصات .

« ان في رقص غصن البان لسحر القريض ، وشجي الانغام ، وبلاغة البلغاء ، ودقة النقاشين ، بل في رقصها نفحات من قداسة الايمان واحداء جميلة من تراتيل العذارى في هياكل اليونان »

هذا ما قاله احد شعراء مصر الشهيرين مصباح افندي لما وقف في اللوج ذات ليلة يتلو قصيدة من نظمه في مديح غصن البان وفنها الجميل العجيب .

ولما قابلها تلك الليلة قبل يدها قائلاً — بل ينبغي ان اقبل رجليك فانك لتنظمين بهما شعراً وانغاماً وصوراً يعجز دونها قريحة الشاعر وبنان الموسيقي وريشة الرسام »

فقالت غصن البان ودموع الفرح تغشي عينيها — لا اكلفك الى ذلك ، بل ارضى منك بقصيدة تقص فيها قصة محزنة قصة فتاة وحيدة مثلاً تحب الحياة حباً جميلاً وتسترسل في تيارها مستهترة ، فتذوق شيئاً من حلوها واشياء من مرها كثيرة ، فأتلوها على الناس ، بل امثلها راقصة .

فلبى الشاعر طلبها واعلنت الكازينو ان غصن البان ستتلو على الحضور قصيدة غراء من نظم الشاعر الشهير مصباح افندي . وطبعت ادارة الكازينو مئات من تلك القصيدة لتوزع على الحضور فظن الناس ان غصن البان ستتلو القصيدة كما يتبادر الى الذهن . وقالوا — ولا غرو اذا ابدعت في الالقاء والتمثيل كما تبدع في الرقص .

ومن عجائب نبوغ غصن البان انها تولت بنفسها ادارة الموسيقى لرقصتها الجديدة · فكانت في اوقات التمرين تعلم الجوق معاني حركاتها واسرار وقفاتها ونبراتها ونقلاتها · فيصحبها العود والكمنجة بما يلائم من الانغام · وكانت اذا شاءت ان تعبر عن الفرح برقصها تسكت الكمنجة وتدير بقية الالات ناصحة معلمة قائلة — هذا بطيء · هذا باليد · اسرع يا عوّاد ولا تتبالد · اضرب الاوتار ولا تخشَ ان تكسر الريشة »

ثم اذا مثلت دور الحزن تُسكت العود وترقص عَلَى انغام الكمنجة الرخيمة حتى اذا وصلت الى سكرة الحب توعز الى صاحبي الدف والقانون ان يشاركا بقية الجوقة ·

غصن البان مخترعة الانغام ! هذه من مظاهر ذكائها التي لم يكنْ احد ليتوقعها · فادهشت مدير الكازينو وصاحبها · وادهشت كذلك الموسيقيين

وفي تلك الليلة وقف الشاعر عَلَى المسرح فتلا قصيدته ثم بدت غصن البان حافية في قميص متسع شفاف مهلهل اذا مسكت طرفيه بيديها المنبسطتين تبدو فيه كالفراشة المجسمة او كطير من اطيار الجنة · فجعلت تنقل نقلات خفيفة ، بطيئة ، وهي غاضة الطرف ، واجلة القلب ، كأنها تجس الارض جساً او كأنها تكتب برجليها كلمات الحيآء والخوف والتردد · فمثلت الابنة الوحيدة الغريبة وهي تدنو من حياة الاجتماع ! من معترك الحياة · فتدخل واجفة واجلة ، فتخف طرباً لاول مشهد تشاهده من مشاهد الانس والسرور ، فتصل تدريجاً وقد رفعت يديها امامها ترقص اناملها النحيفة اللدنة الى جنة

الحب وبهجة اللذات ، والعود والقانون والدف ترافقها بالانغام ، ثم تقف فجأة كمن تحلم حلماً مرعباً فتستفيق مذعورة ، فتسكت آلات الطرب وتسكن جوارح الراقصة ، فتقف اذ ذاك وقفة معناها الاسى ويسمع صوت مغنية وراء الستار تغني بصوت رخيم شجي « يا غزالي كيف عني ابعدوك » وغصن البان تحرك قميصها امام وجهها وحول رأسها كمن تندب حظها . ثم تدخل طوراً آخر عَلَى رنات العود والقانون وهي تتمايل كشجر الحور في فصل الخريف وذراعاها كزنبقتين هزهما النسيم تنقل نقلات كأنها ابيات من ديوان الحماسة ، فترفع ركبة تلو الاخرى حتى قبالة صدرها وهي تهز رأسها وكتفيها مسرعة مقبلة مدبرة ، فتحجب وجهها بطرف قميصها تارة وتارة تبدوه . كأنها تداعب الاقدار . وما هي الا فترة حتى تظهر فيها راقصة الهيكل غانجة راغبة هائجة . فيخل شعرها الاسود فيتماوج عَلَى منكبيها وجوانبها وتحتدم النار في عينيها فتبدو كأميرة الجان متمردة عَلَى القضاء ، فتشرب كأس الغرام ثانية حتى الثمالة وتتوارى انغام الكمنجة في نقرات الدف ورنات العود والقانون وتمسي حركات غصن البان ارتجاجاً متواصلاً كارتجاج النور او الاثير لا يفصل بين الواحدة والاخرى فاصل ما كأنها نفسها ترقص في الفضاء امامها وجوارحها كلها تتسابق اليها في سكرة الحياة بل في رقصة الموت . وتتوارى قليلاً قليلاً وهي شاردة مفترة ، جامحة ، سافنة .

فضجت التياترو بالتصفيق وهتاف الاعجاب

— أحسنتِ أحسنت ! يُعاد ! يُعاد ! براڤو ! براڤو ! كمان كمان !

واستعيدت غصن البان مرات عديدة تلك الليلة .

وبعد انتهاء دورها ارتدت ثيابها وقلبها يخفق طرباً وغماً . فبعثت تستدعي مصباح افندي فجاء يهنئها ويقبل يدها . فقالت تخاطبه

— بل انت اجدر بالتهنئة .

— هذا من لطفك . ولكنك ربة الفن . وما انا الا واحد من عبادك . سحرتِ الناس . فتنتِ الناس . تيمت الناس .

— ولكني يا مصباح منقبضة النفس . الكآبة تملأ قلبي . أفرغت نفسي للناس فلم يبقَ فيها شيء لي . آه . اوّاه .

فنظر اليها مصباح افندي عاطفاً واجداً .

فاخذت غصن البان يده تضغط عليها ثم قالت

— تعال معي .

وركبة واياه عربة اوصلتهما الى بيتها . وبينا غصن البان تترجل حانت منها التفاتة فابصرت الحاج محيي الدين واقفاً قريباً يراقبها ومن معها ، فهتفت قائلة

— ربي ! ربي ! أيتبعني كظلي ؟ هذا جزائي ؟

والحاج محيي الدين ، وقد ادرك انها رأته يراقبها ، انثنى راجعاً راضياً

— أينغص هذا اللئيم عيشي ؟ أينكد حياتي الى الابد ؟

— من هو يا غصن البان ، من هو ؟ . . .

— ادخل ولا تسل · اجلس ، اجلس ايها الشاعر · ما هو الا خيال ، بل وهم من اوهامي ·

وجلست الى جانبه تشخص اليه · ثم قالت

— اسمع · لقد اسكرتُ الناس وانا صاحية · مثلتُ في رقصة الليلة حياتي — حياة هذه الفتاة الجالسة الان الى جانبك ولم يدرك احد ذلك · وماذا يهم الناس ما اقاسي ؟ اسقيهم وانا ظمآنة فيشربون · اطعمهم وانا جائعة فيأكلون · ارقص لهم وانا حزينة فيطربون · وجزائي ما هو جزائي ؟ صياد يخيم على قلبي ، يتبعني كظلي ، ينكد عيشي ، يتعقبني كأني مجرمة اثيمة · هذا الشيطان الذي يملأ جيبه من مالي ويملأ نفسي غماً · صرت أخشى ، يا مصباح ، ان اختلي بنفسي · اغمض طرفي فأراه امامي ، افتح عيني فأراه يطاردني · ويلاه ، ويلاه !

— ومن هو يا غصن البان ؟ قولي من هو فاريحك منه ان شاء الله

— لا · لا · مالنا وله ! اشعل السيكارة ·

وضربت كفاً على كف فحضرت الخادمة

— أتشاركني في زجاجة من الخمر أو تفضل مشروبك الوسكي والسودا ؟

— لا أطلق الوسكي والسودا ·

ليكن ما تشاء · وبعد قليل جاءت الخادمة تدعو سيدتها الى غرفة المائدة · فدخلت ومصباح افندي فاكلا مما أعدته لتلك الساعة من الاطعمة الباردة وشربا بضع كؤوس ثم تناولا القهوة وعادا الى الردهة وغصن البان تقول

— ألا يحق لمن تطرب الناس ان تذوق من الطرب شيئاً يسيراً ؟ ألا يحق للساقي ان يرشف ولو ثمالة الكأس ؟

فهتف مصباح افندي قائلاً

— ووالله لافرغن نفسي في كأسك ايها الساقي .

— ايها الشاعر الحبيب ، انت عزيز ، انت جميل ، انت لذيذ ، انت وان سكتَّ مطرب . نفسك أعانقها . نفسك اعبدها . نفسك ترقص الان امامي كما رقصتُ منذ ساعة امام الناس . في عينيك وفي شعرك انغام شجية . أسمعها اذا لمست شعرك . في انامك ، في فمك ، في ساعدك ما يبهج قلبي الان ويطرب نفسي ويسكر كل جوارحي . لا تقبل عيني . لا تقبل خدي . لا تقبل عنقي . آه — انت جميل ايها الشاعر ، انت جميل .

— وانت في حديثك كما انت في رقصك فتانة ساحرة . انا عبدك . انا من عبادك . انا اسير حبك . ثغرك . ثغرك — آه ما ألذ ثغرك !

— وغداً تكرهني ، غداً تنقلب عليَّ . لا يهمني . لا يهمني . انت الليلة لي وحدي . كلك ، كلك لي . وهذا حقي ايها الشاعر ، هذا حقي . والاَّ فكيف يمكنني ان اطرب الناس وهم يسألونني حقهم كل ليلة . فان لم املأ النفس التي افرغتها — ان لم أغذِ القلب الذي بذلته فكيف يمكنني ان اوديَ الى الناس حقهم غداً ؟ لا اعرف ما تفعل غيري من النساء اذا وجدن في حالتي . ولكن ما تفعله غيري لا يهمني . اظنني اعرف ما اريد ، ما احب

بما اكره · والى ان ينقضي اجلي سأعيش لما احب ولمن احب · وأفر هاربة مما لا أحب وممن يكرهه قلبي ·

وجثت اذ ذاك امام مصباح تقبل يده وفمه وعينيه وتقول

— انت الليلة حبيبي ، بل انت سيدي · وانا عبدتك ايها الشاعر · نفسك الليلة ترقص لغصن البان · عيناك تبهجان قلبي · شعرك يطرب نفسي سيدي حبيبي ! غصن البان تجثو امامك وترمي نفسها بين يديك — صه ! لا تفه بكلمة واحدة · لا يعجبني في ذا الوقت حديث الشعراء · انظم غداً ما تريد ان تقوله الليلة وابعث به الي · ابعث القصيدة يا جميل الى من أحبتك الليلة وعشقتك ····

وفي صباح اليوم الثاني قدمت غصن البان الى مصباح افندي دبوساً لزبطة الرقبة ذكراً منها وودعته قائلة

— اياك ان تخدع او تطمع بي · وخير لك ان تظل بعيداً عني · الوداع ايها الشاعر ، الوداع ! انسني · اجفني · عقني · وان لم تستطع ذلك فانظم لذكراي قصائد تطرب الناس ·

— جميل والله أن اودعك ضاحكاً ، فان كلامك يضحك · سأراك قريباً

— لا لا لا ·

— سأراك في الكازينو مساء اليوم · سأراك كل ليلة هناك !

— كما يراني الناس · وما المانع ؟ الوداع · الوداع ·

—(الفصل السادس عشر)—

عند انقضاء فصل الشتاء حسب عاطف بك حسابه فادهشته الارباح ، ولكنه ادرك ان ايراد الكازينو في الاسابيع الاخيرة لم يكن كذي قبل ، بل بدأ ينقص قليلاً .

— ما قولك يا محيي الدين ؟ لا اظن الناس يقبلون على غصن البان في الموسم القادم كما اقبلوا عليها هذه السنة .

— هذا من باب الحدس والظن . غصن البان متفننة جداً . وقد تجيئنا السنة القادمة برقص جديد . ليس من رأيي ان تتنازل عنها .

فقال عاطف بك وهو يفتل شاربه مبتسماً

— لا اسألك ان تتنازل عنها ولكن الكازينو ...

— دعنا من المزح . سأسافر هذا الصيف الى سوريا ولبنان —

— وتستصحبها ؟ لله درك !

— بل اتركها لك في مصر وكي لا تتفلت من يدنا ينبغي ان تجدد الوثيقة معها . واسألك اكراماً لي ان تكرمها وتقضي لها ما تسألك قضاءه من الحاجات

— هي الان بغنى عني وعنك .

— وهذا السبب في وجوب اكرامنا

— اذا كان المرء بغنى عنك فاكرامك له تزلف اليه

— ليكن ذلك · المصلحة يا عاطف بك المصلحة

— صل عليها وعلى النبي · ليكن ما تريد ·

وكذلك كان · جددت الوثيقة · وقضت غصن البان بعض اشهر الصيف في الرمل بالاسكندرية وبعضها في حلوان · وسافر الحاج محيي الدين الى سوريا ولبنان وعرج في عودته على حيفا فزار الناصرة وتوصل بعد البحث الى مقابلة الست هند قرينة صاحب الفضيلة يوسف افندي مبارك · وعاد الى مصر مسروراً بما علم من سيرة مريم الخادمة سابقاً ، الراقصة الشهيرة الان

وفي ذات يوم بعد ان فتحت الكازينو ابوابها لتستأنف غصن البان العمل فيها جاء الحاج محيي الدين يخاطبها فقال —

— قد نوه بك في حضرة افندينا · وقد علمت من صديق لي في المعية ان سموه يرغب باكرامك · وسنسعى جهدنا في ذا السبيل · لانك يا غصن البان اهل لكل اكرام

— اشكرك ياسيدي محيي الدين · وارجوك ان تعذرني ان ترحمني · ان ...

— وما معناك ؟

فشرقت غصن البان بريقها وقالت — ايحتاج مثلك الى الشرح والايضاح ؟ ثم وقفت كانها تتطارد افكارها المتشردة ثم قالت — اعذرني · اعذرني · لا تبالِ بما قلت · لا تؤاخذني ·

— ليس ما يستوجب الاعتذار والمؤاخذة · انت حرة · وانا من انصار المصر القائلين بحرية النساء وليطمئن بالك